الاستشراق ودوره في صياغة العلاقة بين الغرب والإسلام(*)

الاستشراق Orientalism ظاهرة غربية مهمة؛ ذلك أن الإسلام قد احتك احتكاكًا مباشرًا بحضارات شرقية عديدة هندية وصينية، لكن الحضارة الغربية وحدها هي التي أنتجت ظاهرة الاستشراق بمعنى أن يتخصص عدد كبير جدًّا من أبنائها في دراسة الإسلام – عقيدة وشريعة وحضارة وتاريخًا ولغة إلخ – بكثافة وتركيز، منذ احتكاك الإسلام بالغرب وإلى اليوم.

وإذا كان العالم العربي هو مركز العالم الإسلامي، وإذا كانت أوروبا هي مركز الغرب فإن العلاقة بين العالم العربي وأوروبا أو بين شاطئي البحر المتوسط: شماله وجنوبه قد نشأت قبل الإسلام.

فقد احتل اليونان والرومان المنطقة العربية كلها، أو إن شئت قل إن المنطقة العربية جنوب البحر المتوسط كانت مجالًا حيويًّا للتوسع والهيمنة الاستعمارية من الغرب في شمال البحر المتوسط، وقد استقر الحال على ذلك لمئات من السنين إلى أن ظهر الإسلام في المنطقة العربية، ووحد شعوبها في أمة واحدة تحركت بقوة وثبات وسرعة مدهشة لفتح جميع البلاد التي كانت تحت الهيمنة الغربية، ثم عبرت البحر المتوسط من الجنوب إلى الشمال وفتحت أجزاء كبيرة من أوروبا. وورث الإسلام – ضمن ما ورث – الإمبراطوريتين الغربيتين اليونانية والرومانية.

وكانت الكنيسة إذ ذاك – متحالفة مع الملوك ورجال الإقطاع – هي المسيطرة على مقدرات العالم الغربي (أوروبا).

(*) بحث ألقيناه في مؤتمر (العالم الإسلامي والغرب) الذي نظمته الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا من 5 – 2006/ 9/ 7م في كوالالمبور.

obeikandi.com

ويرى كثير من الباحثين مثل ألبرت حوراني ومكسيم رودنسون وجون اسبوزيتو وغيرهم «أن الصعود والتوسع السريع للإمبراطورية الإسلامية وازدهار الحضارة الإسلامية قد فرضا خطرًا مباشرًا على مكانة العالم المسيحي في العالم من الناحيتين اللاهوتية والسياسية على السواء، كما لاحظ ماكسيم رودنسون: كان المسلمون تهديدًا للمسيحية الغربية قبل أن يصبحوا مشكلة سياسية بزمن طويل، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب، ونموذجًا حضاريًّا يجتاز بتفوقه وبحركته الإبداعية المتسارعة وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب. إذ أنه وفي مواجهة تقدم هذا النموذج عبر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام، وبدا لهم أنه خطر داهم على المسيحية.

تصور الغرب إذًا أن الإسلام يمثل خطرًا ينبغي وضعه في الحسبان، ومن هنا كانت استجابته – كما يذكر جون اسبوزيتو – دفاعية وذات صبغة حربية، تجلّت في إدانته واستبعاده باعتباره همجيًّا كافرًا بدلًا من فهمه[1].

امتلأ الغربيون بالإحساس بالنقص إزاء الدين الإسلامي وحضارته المتفوقة المزدهرة، ودفعهم شعورهم المتزايد بالخوف والمرارة بعد فشلهم المريع في حروبهم الصليبية إلى البحث عن خطط بديلة تحقق أهدافهم دون مواجهة عسكرية بحيث تؤدي إلى تشويه الإسلام في أعين الغربيين وتخويفهم منه بغية صرفهم عنه: أي القيام بعملية تزييف لوعي المواطن الغربي وحجب حقيقة الإسلام عنه. أي أن الغرب قد تصرف إزاء الإسلام تصرفًا ينسجم مع نزعته الاستعلائية العنصرية، فراح ينسج لهذا الدين صورة مزيفة كالحة السواد، ويسوِّق هذه الصورة البشعة المخيفة للمواطن الغربي بهدف تحصينه ضد الإسلام.

ولقد احتمل رجال الكنيسة كِبر هذا العمل وتحولت جماعة منهم إلى

(1) جون اسبوزيتو: التهديد الإسلامي، ترجمة قاسم عبده قاسم، ص61، القاهرة 2002..... ويلاحظ أن المستشرق Bernard Lewis في بحثه عن جذور التطرف الإسلامي يؤكد ذلك.

مستشرقين محترفين يدرسون الإسلام من كل جوانبه من أجل دحضه أو تشويهه بغية تسميم عقل الإنسان الغربي ووجدانه ضد الإسلام ورموزه ليصبح كارهًا له خائفًا منه، وبذلك يبلغ الغرب هدفه في تحصين مواطنيه ضد هذا الدين.

ولا يسعنا إلا أن نقر بأن المستشرقين قد أنجزوا مهمتهم بنجاح كبير واستطاعوا القيام بأكبر عملية تزييف وعي في التاريخ الإنساني حسب علمنا، لقد خان هؤلاء أماناتهم ولم يقدموا لذويهم في الغرب الحقيقة كما هي عليه في الواقع، فأساءوا إلى مواطنيهم، وأساءوا إلى الحقيقة وإلى الإنسانية كلها؛ لأن أعمالهم تسببت في توتر دائم في العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، لقد نجح هؤلاء في خلق صورة نمطية عن الإسلام أو قل إنهم نجحوا في خلق مزاج أو مناخ عقلي عام يسيطر عليه – كما ذكرنا – الكره والخوف من الإسلام إلى الحد الذي لم يفلت منه كثير من عباقرتهم وفلاسفتهم، ثم ورثت وسائل الإعلام الحديثة هذه الصورة النمطية وأعادت إنتاجها وتعميمها على أوسع نطاق مما كرَّس بدوره عمقَ الشعور العدائي وزاد من توتير العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي.

معنى ذلك أن الصورة النمطية التي رسمها الاستشراق للإسلام وسوقها للمواطن الغربي في العصور الوسطى، قد انتقلت – مع تراكم في التشويه وتوظيف لأحدث الوسائل التقنية الإعلامية – إلى المواطن الغربي في العصر الحديث.

وللتعرف على ملامح صورة الإسلام في الغرب في العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى بعض المصادر الغربية مثل:

«The influence of Islam on Medieval Europe»[1].

للمستشرق الأب W. Montgomery Watt

وكتاب:

(1) نشرته جامعة ادنبرة سنة 1972.

«Western Views of Islam in the Middle Ages» (1).

للمستشرق: Southern

والكتاب الوثيقة:

«Rise and Progress of Mohametanism»[2].

للمؤلف الدكتور: Henry Stubbe

ويمكننا أن نقتبس نصًّا من الكتاب الأول يختصر فيه M.Watt أبرز ملامح الصورة التي رسمت للإسلام والتي تمثلت في أن:

1 - الدين الإسلامي أكذوبة وتشويه متعمد للحقيقة:

كان مفهوم الأوروبيين في العصور الوسطى عن العالم والإنسان والرب شديد الارتباط بمفاهيم الكتاب المقدس، بحيث لم يكن في وسعهم أن يدركوا إن كان يمكن توفير صياغات بديلة للتعبير عن هذه المفاهيم، وبالتالي فإنه كلما اختلفت تعاليم الإسلام مع تعاليم المسيحية قيل: إن الأولى زائفة بالضرورة.

ويمكن أن نضرب مثلًا للنبرة العامة في الفكر الأوروبي بصدد هذه النقطة فقرة واردة في كتاب القديس توما الأكويني «Summa Contra Gentiles» فالأكويني كان من بين أكثر مفكري القرن الثالث عشر اعتدالًا ونبوغًا- فبعد أن تحدث عن الآيات والأدلة العديدة التي تؤكد صحة العقيدة المسيحية نجده يصر على أن هذه الأدلة مفتقرة لدى أمثال محمد ممن أسسوا ما أسماه توما بالفرق[3]. بالإضافة إلى (المتع الجسدية) التي يبيحها الإسلام والتي تجذب الناس إليه، إضافة إلى سذاجة الأدلة والحجج التي جاء بها محمد، وخلطه الحق بقصص لا سند لها في التاريخ، وتعاليمه الزائفة، وافتقاره إلى المعجزات التي تؤيد زعمه أنه نبي.

(1) نشرته جامعة هارفرد 1962.

(2) نشر في لاهور 1911.

(3) يقصد أن الإسلام فرقة منشقة عن المسيحية وقد تلقّف هذه الفرية من يوحنا الدشقي.

ثم وصف أتباعه الأول بأنهم لا علم لهم بالإلهيات، وكانوا يعيشون في الصحراء حياة أقرب إلى الحيوانات. ثم يضيف: إن هؤلاء الأتباع كانوا مع ذلك من الكثرة بحيث مكنوا محمدًا من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام. وذكر أنه بالرغم من زعم محمد أن الكتاب المقدس تنبأ بظهوره فإن النظرة المدققة توضح أنه حرّف كل شواهد العهدين.

وفي حين قنع الأكويني والكثيرون غيره من الكتاب المسيحيين بأن محمدًا خلط الحق بالباطل، تمادى آخرون فادَّعوا أنه حيث ما قال قولًا سليمًا دس فيه السم الكفيل بإفساده، فإنه يمكن مقارنة أقواله الصادقة بالعسل الذي أضيف ليخفي السم تحته. أو على حد قول أحدهم: لاحظْ في الكتاب بأسره دهاءه الرائع المتمثل في أنه كل ما أراد أن يقول شيئًا شريرًا، أسرع بإضافة كلام عن الصوم أو عن الصلاة أو عن حمد الله وتمجيده.

كان قصدهم من هذا الحديث في معرض رسمهم لصورة الإسلام بيان تناقض هذه الصورة مع الصورة المسيحية، لأنهم ارتأوْا أن الكتاب المقدس هو التعبير النقي الذي لا تشوبه شائبة عن الحقيقة الإلهية، وأنه مطلق صالح لكل زمان ومكان.

2 - الإسلام دين العنف والسيف:

يقول Watt قد ذكرنا عرضًا أنه حتى العلماء من أمثال توما الأكويني كانوا يحسبون أن محمدًا إنما نشر الإسلام بالقوة العسكرية. كما كانوا يخالون أنه من بين تعاليم دين العرب: الدعوة إلى السرقة من أعداء الله ورسوله وأسرهم وقتلهم واضطهادهم وهدمهم بأي صورة من الصور.

والواقع أن الصورة الأوروبية للإسلام هي أبعد ما تكون للحقيقة، ويذكر Watt: أنه بيَّن أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التي يعترف الإسلام بها لم يخيروا بين الإسلام والسيف، وأن الذين خيّروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم، ولم نسمع عن حدوث هذا خارج جزيرة العرب، أما النشاط الحربي

للمسلمين فإنما أدى إلى توسع سياسي، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة للدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعي.

في تلك الصورة للإسلام باعتباره دين عنف ما يراد به الإيحاء بأنه على النقيض من المسيحية باعتبارها دين سلام انتشر عن طريق الإقناع.

3 - الإسلام دين يطلق لشهوات المرء العنان:

نظر الأوروبيون في القرون الوسطى للإسلام على أنه دين شهواني، وكثيرًا ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات التي يمكن للمسلم الزواج بهن إن تيسر له الإنفاق الاقتصادي.

ويذكر Watt أن بعض الكتاب المسيحيين كان يعلم أن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع زوجات، وكتب مع ذلك يقول إن الحد الأقصى هو سبع أو عشر، وكثيرًا ما ترجموا آيات قرآنية بحيث توحي بمعنى جنسي منفر، والآيات بريئة من ذلك، بل وجد بعض الكتاب آية قرآنية زعم أنها تبيح الزنا... إلى غير ذلك!

4 - أن محمدًا هو المسيح الدجال:

يذكر Watt أن بعض الدارسين الأوروبيين للإسلام لم يكتفوا بالزعم أن القرآن يحوي الكثير من الكذب، وأن محمدًا ليس بنبي، فقد تناول «بطرس المحترم» فكرة لبعض علماء اللاهوت تذهب إلى أن الإسلام هرطقة مسيحية، وذهب إلى أن الإسلام أسوأ من هذا، وأنه من الواجب اعتبار المسلمين كفرة.

وكان جوهر التفكير المسيحي في هذا الصدد أن محمدًا ليس بنبي وأنه كان أداة للشيطان، وبهذا جعلوا الإسلام والمسيحية على طرفي نقيض[1].

***

(1) راجع: كتاب «محمد» تأليف كارين أرمسترونج، وكتاب «إنه رسول الله» تأليف أنا ماري شمل